ـ حضراتكم تسكنون الأرياف؟
ـ أنا مولود بها يا بيه.
ـ ما شاء الله.
جرى هذا الحديث والأستاذ يغط في نومه والأفندي ذو الهندام الحسن ينظر لملابسه ثم ينظر لنا ويضحك، أما التلميذ فكانت على وجهه سيم الاشمئزاز، ولقد هم بالكلام مراراً فلم يمنعه إلا حياؤه وصغر سنه، ولم أطق سكوتاً على ما فاه به الشركسي، فقلت له:
ـ الفلاح يا بيه مثلنا وحرام ألا يحسن الإنسان معاملة أخيه الإنسان. فالتفت إلى العمدة كأني وجهت الكلام إليه وقال:
ـ أنا أعلم الناس بالفلاح، ولي الشرف أن أكون عمدة في بلد به ألف رجل وإن شئت أن يقف على شئون الفلاح أجيبك. إن الفلاح يا حضرة الأفندي لا يفلح معه إلا الضرب، ولقد صدق البك فيما قال. وأشار بيده إلى الشركسي:
ـ ولا ينبئك مثل خبير.
فاستشاط التلميذ غضباً، ولم يطق السكوت، فقال وهو يرتجف:
ـ الفلاح يا حضرة العمدة..
فقاطعه العمدة قائلاً:
ـ قل يا سعادة البك لأني حزت الرتبة منذ عشرين سنة.
قال التلميذ:
ـ الفلاح يا حضرة العمدة لا يذعن لأوامركم إلا بالضرب لأنكم لم تعودوه غير ذلك، فلو كنتم أحسنتم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه أخا يتكاتف معكم ويعاونكم، ولكنكم مع الأسف أسأتم إليه فعمد إلى الإضرار بكم تخلصاً من إساءتكم. وإنه ليدهشني أن تكون فلاحاً وتنحي باللائمة على إخوانك الفلاحين.
فهز العمدة رأسه ونظر إلى الشركسي وقال:
ـ هذه هي نتائج التعليم.

:فقال الشركسي
.ـ نام وقام فوجد نفسه قائم مقام
.أما الأفندي ذو الهندام الحسن فإنه قهقهه وصفق بيديه وقال للتلميذ
...ـ برافو يا أفندي، برافو، برافو
:ونظر إليه الشركسي وقد انتفخت أوداجه وتعسر عليه التنفس وقال
ـ ومن تكون أنت؟
.ـ ابن الحظ والأنس يا أُنس
.وقهقهه عدة ضحكات متوالية
ولم يبق في قوس الشركسي منزع فصاح وهو يبصق على الأرض طورا
:وعلى الأستاذ وعلى حذاء العمدة تارة
.ـ أدب سيس فلاح
ثم سكت وسكت الحاضرون، وأوشكت أن تهدأ العاصفة لولا أن التفت
:العمدة إلى الأستاذ وقال
ـ أنت خير الحاكمين يا سيدنا فاحكم لنا في هذه القضية. فهز الأستاذ رأسه
:وتنحنح وبصق على الأرض وقال
ـ وما هي القضية لأحكم فيها بإذن الله جل وعلا؟
ـ هل التعليم أفيد للفلاح أم الضرب؟
: ـفقال الأستاذ
ـ بسم الله الرحمن الرحيم "إنا فتحنا لك فتحا مبينا. "قال النبي عليه الصلاة
."والسلام لا تعلموا أولاد السفلة العلم
وعاد الأستاذ إلى خموله وإطباق أجفانه مستسلماً للذهول، فضحك التلميذ
:وهو يقول
ـ حرام عليك يا أستاذ. إن بين الغني والفقير من هو على خلق عظيم فما أن
.بينهم من هو في الدرك الأسفل
:فأفاق الأستاذ من غفلته وقال

ـ واحسرتاه إنكم من يوم ما تعلمتم الرطن فسدت عليكم أخلاقكم ونسيت أوامر دينكم ومنكم من تبجح واستكبر وأنكر وجود الخالق.

فصاح الشركسي والعمدة "لك الله يا أستاذ " وقال الشركسي:

ـ كان الولد يخاف أن يأكل مع أبيه، واليوم يشتمه ويهم بصفعه.

وقال العمدة:

ـ كان الولد لا يرى وجه عمته والآن يجالس امرأة أخيه.

ووقف القطار في قليوب وقرأت الجميع السلام وغادرتهم وسرت في طريقي إلى الضيعة وأنا أكاد لا أسمع دوي القطار وصفيره وهو يعدو بين المروج الخضراء لكثرة ما يصيح في أذني من صدى الحديث